تفريغ محاضرة

" إنهم كانوا قبل ذلك مترفين"

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١١ / ١١ / ١٤٤٢ هـ

من نحن ؟

نحن مجموعةُ نهلنا من معين دروس د. هند بنت حسن القحطاني، التي هطلت بروائها على قلوب السامعين، ولما شهدنا ذلك الهطل غيثا مُغيثا مريئا، عملنا بكلٌ جدٍ وحُبٍ على جميع المحتوى وتنظيمه ونشره ليسيلَ عذباً الى قلوبكم

نسعدُ بملاحظاتكم واستفساراتكم على البريد الالكتروني:

info@rawaa.org

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله أما بعد ..

فأبدأ معكم بحديث للنبي عليه الصلاة والسلام حينما خرج ذات يوم فقابل في الطريق أبا بكرٍ الصديق وعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- فقال لهما النبي عليه الصلاة والسلام: ما أخرجكما من بيوتكما؟ فسكتا -و لم يكن من المعتاد أن يخرجوا في تلك الساعة- فقالوا يا رسول الله أخرجنا الجوع، وهذا الموقف يرينا كيف كانت الحياة في المدينة، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: **"وأنا والذي نفسي بيده ما أخرجني إلا الجوع"** ، فتخيل أن يصل المرء لشدة الجوع ولا يجد في بيته ما يؤكل، فقال النبي -عليه الصلاة والسلام- قوموا فقاموا معه، فدخلوا حائطًا لرجل من الأنصار فلم يجدوا صاحبه، والحائط مثل البستان، فلما رأت زوجة صاحب الحائط النبي عليه الصلاة والسلام وأبا بكر وعمر سلمت عليهم وقالت مرحبًا وأهلًا، فقال النبي -عليه الصلاة والسلام- : أين فلان؟ يقصد زوجها، فقالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، فلما جاء الأنصاري قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني، فرح بدخول النبي عليه الصلاة والسلام وأبو بكر وعمر مع أنها كانت دخلة مفاجأة، فانطلق فجاءهم بعذقٍ فيه بسر وتمر، أي قصّ العذق بكامله وجاء به وقدمه للنبي عليه الصلاة والسلام مع ماء بارد، فيأخذون الرطب يضعونه في الماء البارد ويأكلونه، وأخذ السكين فعرف -النبي عليه الصلاة والسلام – أنه سيذبح لهم شاة، فقال النبي -عليه الصلاة والسلام- إياك والحلوب، أي لا تأخذ مَن عندها صغار بل خذ شاة صغيرة، فذبح لهم وأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما شبعوا وارتووا قال النبي عليه الصلاة والسلام لأبي بكر وعمر: والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم، أي ستسألون عنه يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم، لأنهم قبل ساعة فقط كانوا في جوع وقلة من الأكل والمال.

وسنأتي لأحاديث قالها -النبي عليه الصلاة والسلام- يخبر فيها عن زمن سيأتي وستنفتح فيه الدنيا على هؤلاء الناس. عن أبي هريرة في الحديث الذي رواه الترمذي والحاكم قال: سمعت النبي عليه الصلاة والسلام يقول: "إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَعْنِي الْعَبْدَ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالُ لَهُ : أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ وَنُرْوِيَكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟" [أخرجه الترمذي في سننه، وقال الألباني: صحيح] . هذان سؤالان لم نعدّ لهما الإجابة، قد نكون أعددنا الإجابات لكثير من الأسئلة، كشيء من الحرام تركناه أو فعلناه، أو شيء من الحلال قصرنا فيه، ونسينا تلك الأسئلة التي سيسألنا الله عز وجل عنها وعن هذا النعيم، ومنها هذين السؤالين اللذين أخبر عنهما النبي عليه الصلاة والسلام أنه سنسأل عنهما بالذات.

ألم نصحّ لك جسمك؟ تمشي على رجليك وتضرب بيديك، ترى بعينيك وتسمع بأذنيك، تستطيع أن تأكل و تتنفس برئتك و قلبك وكلاك كلها تعمل، كل هذه الأشياء موجودة وصحيحة، وأنت تظن أنه من الواجب أن تكون صحيحًا ولو مرضت فهذا أمر عارض! ونسيت أن هذه نعمة ورزق من الله عز وجل. أضف لها السؤال الثاني "ألم نرويك من الماء البارد؟" قد نحمد الله عندما تكون هناك مائدة عامرة فيها شيء من الترف والنعيم، لكن حتى زجاجة الماء البارد التي تروي ظمأك هذا من النعيم الذي سنسأل عنه.

لنتحدث عن هذا النعيم، ونربطه بما يحصل في واقعنا الآن، **وهل النعيم هو نفسه الترف؟** وهل كثرة التنعم محمودة أم مذمومة؟ وهل الإسلام جاء بهذا النوع من الترف والترفيه والترويح عن النفس إلى حد زائد؟ وما هو المطلوب أساسًا من المسلم في حياته؟ لنعد لحياة النبي عليه الصلاة والسلام ثم نقارنها بحياتنا في واقعنا المعاصر، يقول الصحابة – رضي الله عنهم- ما شبع آل محمد قط من خبز وشعير يومين متتابعين، أي كيسة الخبز التي لا تخلو منها بيوتنا بيت النبي عليه الصلاة والسلام لم يشبع من خبز وشعير يومين متتابعين، وقبض وهو لم يره قط، أي ما أتى هذا الطعام إلى المدينة، فقال التابعون: فما كان طعامكم يومئذ؟ - أي إذا لم يكن عندكم منخل تنخلون فيه الدقيق، ولم يتوفر عندكم الدقيق النقي فماذا كنتم تأكلون؟

قالوا إنما هو الشعير نطحنه ثم ننفخ فيه فما طار منه طار وما بقي هو الذي ندخله في التنور ويأكلونه كنوع من الطعام، فما شبع النبي عليه الصلاة والسلام من الشعير -الذي من المفترض أن يكون متوفرًا- يومين متتالين قط. قال النعمان بن بشير رضي الله عنه في الصحيحين: لقد رأيت نبيكم عليه الصلاة والسلام وما يجد من الدقل ما يشبع به بطنه، والدقل هو الرطب الصغير غير المستوي والذي لا يؤكل أصلًا. ولم يكن ذلك من النبي عليه الصلاة والسلام عزوفًا عن الحياة أو الطعام الطيب فعندما قدّم له اللحم أكله، ولكن كانت هذه معيشته عليه الصلاة والسلام.

لنقارن المعيشة التي عاشها النبي عليه الصلاة والسلام بعيشنا الآن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم«... فَوَاللَّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ» [أخرجه البخاري، صحيح]

قد يقول البعض رسول الله في ذلك الزمن قبل ألف وأربعمائة سنة من الطبيعي ألا تتوفر عندهم مقومات العيش، لكن الحقيقة أنه حتى قبل قرابة السبعين سنة يحدثني أحد أقربائي فيقول: لحقنا بزمن لم يكن فيه ثياب، وكانت أثوابنا تخيطها لنا أمهاتنا و يغزلونها غزلًا من صوف الشاة و الماعز، وقريبي هذا طويل القامة فسألته: كيف كانت جدتي تستطيع أن تغزل لك كل هذا الثوب؟ فقال: كانت تغزله وكلما ازددت طولًا تزيد لي رقعة، أي لا يتجدد الثوب كل فترة وإذا انخرق يُرقّع برقعة، هذا الكلام يقوله رجل موجود الآن بزمننا هذا وليس قبل مائة عام.

نحن الآن نتحدث عن نعيم نعيش فيه في واقعنا المعاصر ربما لم يره أجدادنا وبعض الأحياء اليوم في بداية حياتهم، **ولذلك من الضروري أن نعرف كيف كنا، وكيف أنعم الله عز وجل علينا، لأنه بالشكر تزيد النعم وبكفران النعمة تزول**، وكلما كُفرت النعمة ونشأت أجيال لا تعرف ماذا يعني أن تكون في نعيم زالت هذه النعمة عنهم. حديثنا اليوم ليس عن الزهد ولا الرهبانية ولا كنهوت وعزوف عن الدنيا لا، بل حديثنا بالذات عن الحمى المستعرة للتكالب على الدنيا، وهذا النوع من الترف تتكاثر فيه الناس وتتفاخر

وأصبح الناس في شيء من الانغماس بملذات الدنيا الى درجة أنه حتى الفقير يريد أن يجاري أصحاب الطبقات المترفة، ولا أحد يريد أن يعيش حياة كفاف أو حياة قد تكون كما في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : "اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا".[أخرجه ابن حِبّان في صحيحه، وقال الألباني: صحيح] ، كفافًا يعني مستوري الحال، لا نحتاج إلى سؤال وفي المقابل لا يزيد الرزق عن الحاجة.

حديثنا هذا ساهم فيه الواقع والتقنية وسهلت الأمر ليكون كل شيء سهلًا ومباحًا وموجودًا ومتجددًا طوال الوقت، فأصبح الترف لا يحتاج لأن يكون عندك ثروة طائلة كقارون ولا أن تنتمي لطبقة مترفة، بل حتى الإنسان العادي صاحب الراتب المتوسط قد يكون من الطبقة المترفة من شدة التلذذ والتنعم الزائد عن الحاجة والتي لا يرضاها الله عز وجل ولا رسوله. وأصبح الأمر ليس بقرار ذاتي فقط ليكون من المترفين بل هناك كما قلنا حمى مستعرة في هذا العالم من إعلام وقنوات على مدار الساعة تزين للناس شهوات متتالية من النعيم الذي لا يتوقف، طعام ولباس وشيء من الترف المحرم ومن الترويح المحرم من حفلات وطرب وأيًّا كان، المهم أن تظل طوال الوقت تضحك وتنطرب وتظل في حالك دون أن تشغل بالك لا في أمر الآخرة ولا في رسالة أو في هم ومجد ولا في نصر أمة ولا مستضعفين ومظلومين، كل هذا ضعه جانبًا وانشغل فقط بيومك وكيف تقضيه في ترف وليكن هذا الهم هو الهاجس .

ولو أجرينا مقابلة مع كثير من جيل الشباب ومن يسمونهم برواد الأعمال أو غيرهم نجد أن فئة منهم لديه همّين فقط، الأول: أن يجمع المال، والثاني: أن يصرفه بالتمتع والانبساط، ليست المشكلة في من يجمع المال ليكون أهل بيته مستوري الحال ولايحتاجون لغيرهم فهذه نية عظيمة لأن من خرج من بيته ليعول أهله يبات في الليل مغفورًا، لكن المشكلة في الذي يريد أن يجمع مزيدًا من المال لمزيدٍ من الترف ، ولو سألته مثلًا لماذا تريد المال فسيقول أريد أن أجمع مئة ألف حتى أسافر هذا الصيف للبلد الفلاني وأسكن في فندق معين وأريد الارتحال للتمتع حول العالم

وما جمع المال لأنه يريد أن يبني جامعة في الهند أو وقف لمدرسة للتعليم في أفريقيا، أو مستشفى للعيون في مكان ما، ما جمع المال بعد كفاية الحال من أجل وقف يبقى أجره له ولأولاده من بعده، بل يريد المال من أجل المتع واللذات الآن فقط، وهذه الحمى الموجودة الآن هي التي تشغل أكثر الناس طوال الوقت.

فلو أتيت لأحدهم وسألته عن يومه ستجده يقول أنه مشغول وليس عنده ولا دقيقة فارغة، فما جدوله وما الذي يشغله؟

يذهب للدوام وبعده للنادي، ثم إلى جمعة الأصدقاء وعندما يعود يتابع حلقات من مسلسله، فإذا بها سلسلة من الترويح عن النفس والترفيه المتتالي، ماذا عن العمل من أجل الآخرة؟ أين الأهداف الكبرى في حياتك للأمة المغلوبة المظلومة ولإخواننا اللاجئين والمطرودين في كل مكان من لهم؟ ماذا عن مسؤولياتك الخمسة عشر التي تحدثنا عنها في الدرس السابق؟ هذه متى ستكون في جدول يومك؟ البعض لا يريد أصلًا أن يفكر بهذا كله ولا أن يشغل نفسه به، ولا يريد أن يشعر بتأنيب الضمير حيال ذلك.

هل هذا هو نمط الحياة الصحيح وما جاء به الإسلام؟ يخبرنا الله -عز وجل- عن فرعون، أنه من الترف الذي وصل إليه عميت عينه عن رؤية الحق والباطل، فصارا متساويين عنده، بل على العكس صار الباطل هو حق والحق هو باطل في نظره، وهذا أسوأ ما يمكن أن يؤدي إليه الترف. وليس المقصد من حديثنا، وليس المقصد من حديثنا أن نكون اقتصاديين ونهتم بالموازنة الاقتصادية من أجل غلاء الأسعار والبانزين لا هذا كله خارج حديثنا، لكننا نتحدث عن أسوأ ما في الترف أنه يعمي العين، ولأن الطبقة المترفة دائمًا هم الطبقة الأكثر صدودًا عن الحق وعن تعاليم الشرع والأحكام، ولا يكتفي المترف بالصدّ وحده بل يصدّ غيره عن الحق؛ لأن هذا سيفسد عليهم الترف الذي يقومون به، فماذا قال فرعون ولاحظوا الحجة الباطلة التي استخدمها ليصدّ قومه، لكن كان في زمنه هناك من يسمع له

قال تعالى: "وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ(52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الملائكةُ مقترنين(53)". (الزخرف:51-53). كان يقارنه بنفسه يعني لو لبس على الأقل كما كان يلبس الفراعنة أساور وقلادات وأبات من الذهب، أو يأتي معه الملائكة مقترنين وحاشية بدل أن يأتي وحده ويريد أن يكون رغم قلته هو النبي ويقلب موازين هذا الكون كله، وقومه لم يكونوا أصحاب عقول بل أناس فسقة، ولذلك اقتنعوا بكلام فرعون وحجته الساقطة، ولو كانوا أصحاب عقول لعلموا أن الأفضلية ليست لمن عنده المال والغنى فحسب، فموسى كان صاحب عقل ورسالة، فكان بإمكان أحدهم أن يحاجّ فرعون، لكن لأنهم كانوا فسقة وانتشرت عندهم الذنوب والمعاصي وأحبوا ذلك ورضوا به، جعل الله فرعون وقومه سلفًا وعبرة للأقوام الذين من بعدهم.

هذا الترف الذي خشيه النبي عليه الصلاة والسلام لأن أسوأ ما فيه أنه يعمي العين عن الحق، وهو كما ذكرنا قبل قليل الإغراق في التنعم.

والترف ينقسم لشقّين من المهم معرفتهما:

الأول: الانغماس في التنعم. فلا يكفيك لذة واحدة بل تريد لذات وشهوات متتالية لا تنقطع، ولا يهمك هي من المباح أم المحرم بل المهم أن تستمتع طوال الوقت، فهذا هو الجانب المادي منه.

الثاني: أن الترف قرين البطر. وهو الجانب المعنوي، فغالبًا الذين يعيشون في طبقة مترفة يصبح عندهم هذا النوع من بطر النعمة و هو ازدرائها، مثلًا توضع أمامك سفرة بأصناف الطعام فتنظر لها بازدراء لأنك لم تجد فيها ما تحبه، وكأنك لا تعلم أن هذه السفرة الممدودة نوع من أنواع النعمة التي أنعم الله عز وجل بها عليك بل هي من النعيم.

المشكلة أنك تزداد في التنعم وكذلك لا تشكر هذه النعمة، فتنشأ أجيال تتبطر على هذه النعمة ولا تريدها وتستهين بها، ونرى هذه الأيام من الجيل الجديد من قد تعطيه العصير أو صحن الطعام فيكبه ويزدريه، والأمر لا يقتصر على الطعام والشراب فحسب، فمثلًا قد يكون اشترى هاتفًا قبل فترة بسيطة فيشتري هاتفًا آخر هكذا دون سبب. هذه اللامبالاة بالمال وأين تصرفه يعد من التنعم الزائد والبطر.

الله عز وجل حينما تكلم عن أصحاب الشمال وصفهم بوصف أليم ومخيف قال تعالى: "وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (44)" والسبب "إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (46)". (الواقعة:41-46). والمترفين كما نقول يعيشون حياتهم في الدنيا بالطول والعرض وليس لديهم استعداد أن ينقصهم شيء، وقد يقارن نفسه بالناس وقد يستدين فقط من أجل أن يكون مثل الملأ، وفوق ذلك كانوا يصرون على الحنث العظيم أي كان يصر على الكفر بالله والشرك به سبحانه، ولا يريد أن يشكر نعمة الله عز وجل عليه.

دعونا نرى عبر التاريخ ما هي ردود أفعال هذه الطبقة المترفة حتى نتعلم منها لأن الله عز وجل عندما ذكرهم في القرآن فهي عبارة عن رسائل توجيهية أن علينا ألا نكون مثل هؤلاء، فلما يقول الله عز وجل عن قوم نوح -عليه السلام- أنه جلس ألف سنة إلا خمسين عامًا وهو يدعوهم، وأول من واجهه في بداية دعوته كانت هذه الطبقة المترفة، ونلاحظ دائمًا أنه يأتي ذكرهم في القرآن بصيغة "فقال الملأ الذين كفروا من قومه"، كان من الممكن أن الله عز وجل يقول فقال الذين كفروا من قومه ويستقيم المعنى، لكن لماذا دائمًا تأتي كلمة الملأ في مواجهة الأنبياء؟ وافتح سورة هود، يونس، الأعراف وفي قصص الأنبياء دائمًا ستجد كلمة الملأ، وافتح كتب التفسير ابن كثير أو السعدي وغيرهم ستجد أن الملأ هم كبار القوم وأعيانهم، هم الوجهاء وأصحاب السلطان وأصحاب القرار، هم الأثرياء والأغنياء. هم الذين يملكون المصالح ولا يريدون خرابها، فيقول الله عز وجل عن ردة فعلهم لنوح -عليه السلام-: " فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ". (هود:27). من تكون؟ لست ملك ولم يكن أجدادك ملوكًا ولست بشخص معروف ولا من قبيلة معروفة، كما ظنت قريش أن محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم- ومن معه لن تقوم لهم قائمة، يظنون في لحظة أن الباطل الذي انتفش هو الذي ستكون له الديمومة وأمر محمد عليه الصلاة والسلام وصحبه إلى اضمحلال

المبدأ الذي تكلمت واحتجت به قريش هو نفسه المبدأ الأول الذي تكلم به قوم نوح -عليه السلام- وأتت هذه الفئة في الأقوام من بعدهم فيقول الله عز وجل : "ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ". (المؤمنون:31) مات قوم نوح-عليه السلام- ومات المكذبون في الطوفان والذين ركبوا في السفينة وأنجاهم الله وعاشوا في إيمان مرت بهم الحياة ثم ماتوا بعد ذلك يقول الله عز وجل: "فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (32) وَقَالَ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ(33)". (المؤمنون:32-33). القضية ليست بمعجزة سماوية يأتي بها ، بل المعجزة هو هذا الكتاب الذي يقرأه الناس فيسلّمون به، لأن الإعجاز هو في شرع الله وليس في شخص النبي صلى الله عليه وسلم لوحده فقط، ولذلك قالوا ما نراك إلا بشرًا مثلنا أي نفس ما حصل سابقًا، ونلاحظ من الذي يحاج ويتولى الصدّ الأول؟ هم الملأ مرة أخرى. نلاحظ في القرآن دائمًا الله عز وجل يأتي بالذنب على هذه الطبقة فيقول الله عز وجل : "وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا". (المزمل:11). وليس الذنب للنعمة فإذا كان مؤمنًا شاكرًا فهذا خير والله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، لكن أن تأخذ هذه النعمة وتنغمس فيها ثم تكفرها هذا هو الذي جاء فيه الوعيد، وهذه هي الحال دائمًا، لا يأتي أهل الحق في أي زمن من الأزمان إلا وتتولى هذه الطبقة المترفة مهمة الصد، ولذلك قال الله عز وجل: "وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ". (الزخرف:23). من عهد آدم -عليه السلام- إلى قيام الساعة، يعارضون النبي ودعوته ولماذا يريد إرجاعهم إلى قرون ماضيات ورجعية وتخلف، وكأن لسان حالهم يقول: نحن الحمد لله في نعمة ولو كنا على باطل لما امتلكنا هذا الخير كله، فيرد الله -عز وجل- عليهم: "وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ". (سبأ:37).

فامتلاكك لخير الدنيا ليس دليلًا على أنك على حق

ولذلك قال العلماء الله -عز وجل- يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، فهناك كفرة وملحدون ينكرون وجود الله -عز وجل- وهناك عبدة شياطين وهناك من يفعل المنكر جهارًا وينشرونه ليلًا ونهارًا ومع ذلك يعطيهم الله عز وجل من الدنيا ويمد لهم، وهناك الكثير ممن يقولون نرى المشاهير وغيرهم قد أنعم الله عليهم وأغناهم رغم ما يفعل بعضهم وعندهم كل شيء، ونحن نصلي ونصوم ولا نملك شيئًا، فياليت أن نؤتى مثل ما أوتوا، فلماذا يعطي الله الدنيا من يحب ومن لا يحب؟ لأن هذه الدنيا إنما هي استدراج وامتحان وابتلاء.

هذا الترف فيه مشكلتان:

الأولى/ على صعيد الفرد نفسه، أنه يشغله بنفسه طوال الوقت فكما قلنا يزدحم يومه بترف الدنيا وينغمس في النعيم فيشغله ولايترك حيزًا في تفكيره للآخرة، وقد لا يتذكرها إلا في رمضان أو ليلة القدر لأنه يكثر حديث الناس عن التقرب بالعبادات في تلك المواسم، أما بقية العام فتراه يذهب بداية العام لبلد غربي يحتفل بأعيادهم ويفعل في عامه ما يستلذ به دون النظر لحلال أو حرام ولا يكاد يتذكر آخرته.

الثانية/ على صعيد الأمة، يقول الله -عز وجل- عنهم: "وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا". (الإسراء:16). فإذا أراد الله أن يهلك قرية من هذه القرى قدّر عليها أن يكون من مسببات هلاكها أن الطبقة المترفة فيها بدأت بالفسق، هذا الفسق الذي يراه جموع من الناس والعوام فيرضونه ويحبونه ولا ينكرونه ولا يشعرون أن هناك منكرًا في قومهم.

لوط -عليه السلام- لما أنكر على قومه فعلتهم لم ينكر على شيء كانوا يختبئون أثناء فعله، بل كانوا يجاهرون به، فالإسلام لا ينبش عما تفعله أنت لوحدك ومع نفسك فهذا ذنب بينك وبين الله، لكن لوط -عليه السلام- قال:وتأتون في ناديكم المنكر، أي كما نقول في يومنا هذا حفلة على الهواء مباشرة يبث فيها الفسق والمجون والرقص والاختلاط و يراه كل الناس، لم يعد هناك حاجة للسفر وأن يقطع المرء مسافة ليصل للمنكر بل يأتيه في ناديه أي في استراحته أو بيته أو مجلسه أيًا كان

فلو كان قوم لوط -عليه السلام- يختبئون بفعلتهم ما نزلت عليهم الحجارة من السماء، لكن نزلت الحجارة حينما صار الأمر عاديًا وكل الناس تراهم ويصبح الإنكار ضعيف جدًا، وكثرة المساس تُميت الإحساس، فكثرة المنكر أمام عين المرء تجعله يحس أن الأمر عادي وأن هؤلاء الناس هم الذين يفهمون ويعيشون الحياة و يواكبون العصر ونحن مازلنا متخلفين عنهم.

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

"تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ" [أخرجه البخاري، صحيح]

من يعبد قماش أو درهم أو قطيفة؟ في الحقيقة لا أحد يضع ملابسه ويتعبد ويسجد لها، لكن هناك أناس تعبد الموضة، يلبس كل ما نزل حديثًا سواء كان مخالفًا للشرع أو كاشفًا للعورة، ويضع نفسه تحت ما نسميه ضغط الواقع والكل يفعله فيشعر الإنسان أنه يجب أن يفعله.

لذلك إذا انتشرت الذنوب في أمة من الأمم يقول الله عز وجل عنهم:

"وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا". (الإسراء:17).

إذًا هذا الذي حصل في الأقوام من بعد نوح، جابر بن عبد الله يحكي عن موقف حصل له مع عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يقول: "رآني عمر وفي يدي لحمًا معلقًا، فقال له عمر: ما هذا يا جابر؟ قال: يا أمير المؤمنين إن هذا لحمٌ اشتريته بدرهم لنسوة قرمن إليه -أي نساء البيت اشتهين هذا اللحم فاشتريته لهم- فقال عمر: أوكلّما اشتهى أحدكم شيئًا صنعه؟ ألا يوجد أحدكم يومًا أن يطوي بطنه لأخيه أو لابن عمه، ألا تخافون من قوله تعالى: (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا)، فيقول جابر: (فما انفلت منه حتى كدت ألا أنفلت). أي أمسكه عمر وأعطاه محاضرة لتعجبه من المبدأ في الحياة أن كل ما اشتهيتموه صنعتموه، ولماذا لا تنامون و أنتم جائعين وتعطون طعامكم لمن يحتاجه.

عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ليس موسوسًا بل هو صاحب رسول الله -عليه الصلاة والسلام- وهو شديد في ذلك حماية للناس وإقرارًا للمبدأ الذي باتت الكتب تتكلم عليه اليوم وتعطى دورات كثيرة في إدارة الأولويات وأن عليك التمييز بين المهم العاجل والعاجل غير المهم وما الذي يمكن تأجيله، فعمر يختصر منهج الحياة إنه ليس كل شيء تشتهيه تصنعه، ولذلك هو بدأ في الأساس بابنه في القصة المشهورة لابنه عبد الله لما قال: أوكلّما اشتهيته اشتريته؟ كل مرة اشتهيت حلوى أو قهوة أو سوشي اشتريته، هذه الشهوة التي لا تتوقف عند حد، وهذا الكلام لا يمنع أن تبسط على نفسك في أحد الأيام أو تتآلف قلوب من حولك بأن تحضر لهم شيئًا، لكن البعض ديدنهم في الحياة يوميًا أنهم يعيشون على شهواتهم، يقولون لا تبخل على نفسك وابسطها سواء البسطة في الحرام أو الحلال أو البذخ. قال رجل لابن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: ألا أجيئك بجوارش؟ فقال ابن عمر وأي شيء هو؟ قال: شيء يهضم الطعام إذا أكلته، فقال له ابن عمر: ما شبعت من الطعام منذ أربعة أشهر وليس ذلك لأني لا أقدر عليه ولكني أدركت أقوامًا يجوعون أكثر مما تشبعون. إذا رجعنا إلى حياة عبد الله بن عمر لم يكن من الفقراء بل كان من الأغنياء، لكن الترف الذي نتكلم عنه ليس قرين الغنى فحسب، بل قد يكون فقيرًا ويعيش حياة المترفين لأنه يريد أن يعيش هذه الحياة، وفي المقابل قد يكون هناك إنسان غني ولا يعيش هذا الترف في الحياة بل زاهدًا فيها، فابن عمر أدرك أبوه وأدرك النبي -عليه الصلاة والسلام- وأبا بكر والجيل الأول -رضي الله عنهم- فهو يعرف أن كثرة التنعم تضر الروح كما أنها مضرة بالجسد.

عثمان بن عفان -رضي الله عنه- وهو من الأغنياء المعروفين وقد قال عنه النبي -عليه الصلاة والسلام-: "مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ".[أخرجه الترمذي في سننه، وقال الألباني: حسن] من شدة عطائه فهو يعطي ويتصدق ويقول في خطبة: (إن الله إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة وما أعطاكم الدنيا لتركنوا إليها). يعلمهم الهدف وهو نعم المال الصالح للرجل الصالح، فالمال محمود حينما يكون ليدٍ وقلب لا يتشوّفه، وإنما يكون وجوده أو عدم وجوده سيان لكن الفرق الوحيد أنه يحب هذا المال ليعطيه لا ليكون لنفسه فقط.

لنرى آيتين عن الذين يطلبون هذه النعم وقد تستغربون في أي سورة جاءت، قال الله عز وجل: " لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ". (سبأ:15). تذكرون درس مملكة سبأ الذي أخذناه، قد أنعم الله عليهم فكانوا في رغد من العيش فكفروا بأنعم الله و شرعه فماذا حدث؟ يقول تعالى: "فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ". (سبأ:16). تكررت كلمة كفور وكفروا فلما كفروا بالنعمة وكفران النعمة أنك لا تشكرها لا شكر قولي ولا بالجوارح.

أم الوزير جعفر البرمكي من البرامكة في الدولة العباسية، هؤلاء كانوا مجموعة من الوزراء وكانت لهم الدولة في ذلك الوقت، وبالفعل عاشوا في رغد وفي انغماس من الملذات لم يعرف في ذلك الزمن عن أحد غيرهم، فأم واحد منهم في عيد من الأعياد دخلت على الناس وهي تتسول وعليها ثياب رثة وتطلب جلد شاة أي في عيد الأضحى فتقول أنها لا تريد اللحم فقط جلد الشاة فعرفوها أنها أم الوزير، فقالت هي: لقد مرّ علي مثل هذا العيد فيما مضى وعلى رأسي أكثر من 400 جارية وكنت أرى أن ابني عاقًا لي وقد أتيتكم الآن اليوم يقنعني جلد شاتين أجعل واحدة منهما فراشًا وألتحف بالأخرى. أي مرّ عليها مثل هذا العيد وعندها 400 خادمة على رأسها كلهن يحطنها لنتخيل لو أن كل واحدة منهن مسكت أصبع من أصابعها ماذا سيفعل باقي الخدم؟ تقول وكنت أنظر إلى ابني أنه عاقٌ لي، أي ما أعطاني ولا زاد لي من العطاء، فعندما تكفر بالنعمة وتنغمس في النعيم فأنت لا تأمن على نفسك بوائق الله -عز وجل- ولكن تأمل بوائق الدنيا ماذا من الممكن أن يحصل لك والدنيا تدور!

قصة المعتمد بن العباد في الأندلس مشهورة ومعروفة لكن هذه القصة تحصل لمن يظن أن الخلود الأبدي هو في البطر الذي يعيشه الإنسان، ولذلك علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام -رضي الله عنهم- هؤلاء كلهم من رجال أعمال ذلك القرن، عبد الرحمن بن عوف هو صاحب الكلمة المشهورة: (دلوني على سوق المدينة)

فراح فضرب فيها فأخرج ماله، وقد كان مهاجرًا ما عنده درهم واحد ولا درهمين لكن التجارة في دمه، هؤلاء كلهم كانوا من كبار التجار ومن رجال الأعمال كما نقول اليوم ومع ذلك كانوا يعدون في ذلك الوقت من الزهاد المعدومين! فمن يعرف أن علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- كان من الأغنياء؟ لأنه لم يكن يعيش حياة الترف ولا البطر لكن المال كان موجودًا للكفاف ومن أجل العطاء، وكذلك عبد الله بن المبارك من الزاهدين بالرغم من كثرة ماله وهو من كبار التجار في الإسلام ومع ذلك جعل ماله في سبيل الله عز وجل.

قد يتساءل الإنسان أحيانًا في ماذا قد يكون الترف؟

الترف يأتي في أشياء كثيرة، في المأكل والمشرب والملبس، أذكر عندما كنت صغيرة رأيت في أحد البرامج عن انقلاب أو ثورة حدثت ودخلوا في قصر الأميرة وكانت الكاميرا تدور في غرفة ملابسها التي تحوي كم هائل من الأحذية قرابة 200 زوج، وكنا مندهشين كيف لأحدهم أن يمتلك كل هذا الكم من الأحذية في الحياة، وماذا تفعل بهم، وكان المنظر لغرفة الملابس يثير الدهشة لأنه لم يكن موجود، لو أتينا للحال اليوم من منا لا يملك دولاب ملابس كبير؟ أدركنا أناسًا ما زالوا أحياء يقولون كنا ندعو في ليلة القدر أن ينزل الله علينا دولابًا! كنا نراه في الأفلام فقط ونتمناه، لأنه كان لديهم مجرد صندوق فيه ثوبين أو ثلاثة وكسرة عود.

نحن لن نعود لتلك الحياة لكن دعونا نضع رقمًا كم نحتاج من الملابس حسبما تتوقعون؟ وكم لديكم حاليًا؟ من سيرتدي هذا كله؟ فالتنعم بأن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده هذا واجب ونحن لا نتكلم عن الزهد ولا عن الرهبانية لكن نتكلم عن الشيء الذي يزيد عن حده ونصبح أناسًا تستهلك دون شعور، اليوم أصبحت الملابس تطلبها وتأتيك في كرتون مثلما يأتيك الطعام هذه السهولة التقنية التي سهلت علينا حياتنا هي جزء من النعيم لكن يجب ألا نصبح بلا إحساس ونكون فقط أناس مستهلكة طوال الوقت.

قد يقال لك تصدق بأربعة آلاف فتقول لا أستطيع لأن راتبي 7 آلاف وماذا سيبقى لي منه؟ لكن لو تأملت صرفك لهذا الراتب لرأيت أن الكثير منه قد يذهب في أمور تافهة وما لا تحتاجه أصلًا، وكان من الممكن أن تجعل جزءًا منه للدار الآخرة لكنه ذهب في الدار الدنيا، أليس هذا من الترف؟ يحتاج الواحد منا أن يقف مع نفسه وقفة جادة قبل أن تأخذه الدنيا.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ . قَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً . قَالَ : إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ ". [أخرجه مسلم، صحيح] أي يحب أحدنا أن يكون شكله مرتب ونظيف فقال النبي -عليه الصلاة والسلام- : "إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ". [أخرجه مسلم، صحيح]. فبطر الحق أن تنكره فيؤدي فيك هذا الترف والتنعم الزائد الذي تعيشه إلى أن تتبطر على هذه النعم، فتبطر الحق فترده ولا تريد أن تسمع شيئًا عن شرع الله، وغمط الناس أن لا تؤدي حق هذا المال في الناس فلا تعطيهم حقوقهم، ولا تؤدي زكاة هذا المال عليك، قال ابن الجوزي: "كان السلف يلبسون الثياب الأجود" أي يلبسون ملابس مرتبة "ويلبسون ثيابًا متوسطة لا مترفعة" يعني ما يلبسون شيئًا لا يلبسه إلا مثلًا الجبابرة والعظماء. ولا يأخذون الثياب من الثياب الشيء المهترئ، بل يأخذون الشيء الجيد و يتخيرون أجودها للجمعة و للعيد و للقاء الإخوان فيتزينون لبعضهم.

وذكروا عن الإمام الشافعي وعن مالك أن له حلة يلبسها إذا جاء يحدث بمجلس الحديث، ولم يكن تخير الأجود عندهم قبيحًا، أي لما يعرض عليهم يأخذون مثلًا القماش الأحسن الأجود وهذا كان مطلوبًا، وأما اللباس الذي يزري بصاحبه ويتضمن إظهار زهدٍ أو فقر وأن تلبس لباسًا ليقول الناس هذا زاهد و مسكين ما عنده إلا بضع قطع من الثوب، أو من يلبس الثوب المشقوق والمرقع وكأنه لسان شكوى من الله فكل ذلك مكروه ومنهي عنه. ممن سبقنا من كانوا يصومون ويلبدون شعورهم بالزيت و يدهنون وجوههم حتى لا تظهر عليهم قترة الصيام، فلا يأتي وفمه ناشف وأصفر اللون وشفتاه متقطعة، ما كانوا يرضون أن يظهر على حالهم أنهم يشتكون الله عز وجل إلى خلقه.

ومن الترف الذي أصابنا هذه الأيام في المأكل والمشرب عند الذهاب للمطاعم والنظر في قائمة الطعام، مجرد فطور أو طبق عادي وتقليدي هل يستحق كل هذا المبلغ؟ حدثوني عن مطعم في الرياض عليه زحام إلى درجة الانتظار لثلاثة أشهر حتى تحصل على موعد فيه، والصدمة أنه لا يمكن أن تخرج بأقل من 2000 ريال للشخص الواحد فقط! والمتحدث يقول أنه عزم أربعة من أصدقائه، فتخيلوا معي المبلغ قرابة 8000 ريال لليلة واحدة هل يعقل؟ ما الطعام الذي أكلوه؟ المبلغ يقابل قيمة وليمة عرس! لابد أن نعي ما الذي نفعله في حياتنا لأن هذا الترف الذي يكون في الأشياء البسيطة سينعكس لاحقًا إلى الأشياء الكبيرة، والأمر يتطور إلى كل ما يتعلق بالترويح عن النفس و ترفيهها، فتصرف مبالغ طائلة أكثر من 14 مليار على مايسمى بإسعاد الناس وترفيههم، والسؤال هو تعويض الناس عن ماذا؟ وهل هذا ما يحتاجه الناس؟ بغضّ النظر الآن عن الحلال والحرام لكن السيل اللامنتهي لمجرد فكرة إشغال الناس بشهوات متتالية لإقعادهم و لجعل بناء الأمة ضعيف لتكون خاوية على عروشها.

ابن خلدون كتب في كتابه كلام عظيم عن سقوط الأندلس وعن الرومان والفرس، وكتب بعض الدروس النهائية منها: أنه مقومات سقوط الدولة أن ينشأ أجيال ليسوا كما الأوائل مثل أجدادهم، بل ينشؤون وقد غُذّوا بالنعيم وولدوا به إلى درجة أن يصبح فيهم من الرخاوة والنعومة ما لا يستطيع معه حتى حماية نفسه فيستأجر من يحميه فتسقط دولته، فإذا لم تكن تستطيع أن تحمي نفسك من أي عدو ولابد أن يكون معك أحد يحميك طوال الوقت فسقوطك مسألة وقت فقط، إذًا عندما نتحدث عن النعومة والرخاوة التي يعيشها الإنسان وما يفعله الترف فيصبح مثل الداء المسموم على الإنسان.

لذلك يجب أن تنتبه لجدولك اليومي كيف تقضيه؟ وأبنائك على ماذا يعتادون؟

نختم درسنا بسؤال مهم وهو:

كيف نعالج الترف؟ لدينا أربع نقاط نود ذكرها للعلاج:

أولا/ يجب ألا تتعود على الكسل والعجز. كنا في جلسة ونضحك على الواقع وما يحدث فقالت إحداهن حتى حفيدتي الصغيرة تجلس وتنادي العاملة لتحضر لها الحليب! هل هذا منظر مقبول؟ لم نعد نستنكر ذلك بل ألفناه، صغارنا يستيقظون ويجلسون وينتظرون من العاملة أن تأتي لهم بطعامهم وحاجتهم، فقالت إحدى الجالسات: لا تلوموهم هم فتحوا أعينهم على الدنيا ولا يرون إلا الخدم وهم يخدمونهم طوال الوقت، تخدم الأم والأخت الكبيرة وهي صغيرة فظنت أن هذه هي الحياة الطبيعية، لكن هل من الصحيح ما نفعله في أطفالنا ونربيهم عليه؟ وكذلك ما نفعله في أنفسنا؟

ولذلك لا تعود نفسك على العجز والكسل وهذه دعوة النبي -عليه الصلاة والسلام-: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ ..." [أخرجه البخاري، صحيح] لاحظوا جمع الكسل والجبن ومن الهرم أي أن ترد إلى أرذل العمر كلها تعوذ منها النبي -عليه الصلاة والسلام- في مكان واحد، فإذا كنت كسولًا فالنبي -عليه الصلاة والسلام- يتعوذ من هذه الصفة، ولو كنت من النوع العجّاز الذي لا يحب أن يذهب ويقوم ويفعل كل شيء بنفسه فأيضًا النبي -عليه الصلاة والسلام- تعوذ من هذه الصفة، إذًا ليس من الخطأ أن تحضر أغراضك بنفسك وتخدمها بل لابد أن تتعود عليه وتعوّد أولادك من بعدك.

سأل الأسود عائشة -رضي الله عنها- قال لها: "ما كان يصنع رسول الله في بيته؟" هل يجلس ويستريح و يقرأ القرآن ويصلي فقط؟ توقع أن هذا ما يفعله وأن هذه ستكون الإجابة، فقالت عائشة: "كان في مهنة أهله". أي: في خدمة أهل بيته، مثلًا عندكم لمبة مكسورة متى آخر مرة ناديت ولدك الذي بلغ عمره 16 سنة وقلت له قم بإصلاحها؟ هل فعل ذلك في عمره كله؟ هل اشترى ولو لمرة مقاضي المنزل؟

هل اشترى ولو لمرة مقاضي المنزل؟ نتأفف من أبنائنا لعدم تحملهم المسؤوليات ثم نريدهم بعد الزواج أن يتحملوها ونحن لم نعودهم على ذلك، يضع الولد سيارته عند الباب ويأتي السائق ليعبأ فيها الوقود ولم يعتد أن يغسل سيارته ولا أن يفعل فيها أي شيء! هل ترون أن هذا طبيعي وأنها تربية صحيحة؟ لو دخلنا في حرب ماذا سيفعل هؤلاء غير الاختباء! من سيحمي ويدافع؟ فنحن كآباء نتحمل جزءًا من عيشهم بهذا الترف .

ثانيا/ أن تتقلل من الدنيا. لا تترك الدنيا وتزهد لكن قلل منها، جرب ألا تعطي نفسك كل الذي تحب، جرب أن ترى ماتشتهيه وترغب فيه ثم تقول سأتركه لله. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ : "أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ [8/211] وَالنَّاسُ كَنَفَيْهِ ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ : أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟ فَقَالُوا : مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ : أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟ قَالُوا : وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لِأَنَّهُ أَسَكُّ ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ! فَقَالَ : فَوَاللهِ ، لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ ". [أخرجه مسلم، صحيح]

حينما مرّ بجدي أسك ميت والأسك: ما ليس له أذن أو أذنه صغيرة وكان ميتًا في الطريق فقال النبي -عليه الصلاة والسلام- وقد أخذ بأذن هذا الجدي وهو مكان العيب فيه وقال: أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟ طبعًا هي شاة ما تقدر بثمن في ذلك الوقت فقال الصحابة: يا رسول الله ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به، أي يعني ولو مجانًا ما أخذناه وما نصنع به؟ قال أتحبون أنه لكم؟ قالوا لا والله لو كان حيًا لعبناه، أي ولو كان حيًّا ما أردناه لهذا العيب الموجود فيه فكيف وهو ميت! فقال النبي -عليه الصلاة والسلام- عن هذا الجدي الميت الذي زهد فيه الصحابة -رضي الله عنهم- :والله للدنيا أهون عند الله من هذا عليكم" الدنيا هذه التي نتفاخر وتتكاثر فيها و أشغلتنا في حياتنا والتي ترددنا ونؤجل قرارات كبيرة من أجل المجتمع ونظرة الناس، وحتى نكون من الطبقة الراقية والمتحضرة فكل الدنيا ومافيها أهون عند الله من جدي ميت على قارعة الطريق!

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ" [أخرجه الترمذي في سننه، وقال الألباني: صحيح] ثم يقول النبي -عليه الصلاة والسلام-: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا".

[أخرجه الترمذي في سننه، وقال الألباني: حسن]

ثالثا/ أن تنظر إلى من هو دونك ولا تنظر إلى من هو أعلى منك. لا تتعب نفسك بأولئك الناس الذين يشغلونك طوال الوقت و تراهم يعيشون الحياة ذهابًا وأيابًا وسفرًا ولم يبقوا من ملذاتها شيئًا، لاتنظر في حياتهم ولاتتابعهم فتشعر أنك في شظف من العيش رغم أنك تحت التكييف وعندك المأكل والمشرب فترى كل النعيم الذي تعيشه وكأنه لاشيء يذكر وتحتقره لأنك ترى من هم أكثر منك، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- والعلماء دائمًا وكذلك السلف كان هذا هو منهجهم ألا تنظر إلى من هو أعلى منك وانظر إلى من هو أدنى منك، انظر للذين لايملكون شيئًا وبيوتهم مهدمة عليهم، واعلم أن هذه الدنيا بأكملها قد يعطيها الله لأي أحد، فلذلك قال الحسن البصري "من نافسك في دينك فنافسه ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره "، لا يكن همك هذا لبس أفضل مني وهذا اشترى وهذا فعل فسأنافسهم بل على العكس من نافسك فأعطه الدنيا لأنها لا تستحق التنافس، خذها قاعدة ليس هناك ما يتحسف عليه في الدنيا.

رابعا/ قصّر أملك. واعرف أنها مسألة وقت ولحظات لا أكثر، قال عبد الله بن عمر أخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمنكبي فقال: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ"[أخرجه البخاري، صحيح] ، وكان ابن عمر يقول: "إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لسقمك وخذ من حياتك لموتك". لو عشنا بهذا المبدأ سيتغير الكثير في حياتنا، فإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وعش في هذا الصباح كله وكأنه عند أذان المغرب ستنتهي الحياة، فانظر ما الذي يمكن أن يملأ هذا الوقت من أنواع الخير، وعندما يؤذن المغرب استشعر أنه إلى أذان الفجر لا تدري هل ستلحق بالأذان أم لا! فافعل في هذا الوقت من الخير ما استطعت. وخذ من صحتك لسقمك ومن حياتك لهرمك.

<u>خامسا</u>/ عالج نفسك أن تترك بعض النعيم الذي تقدر عليه. النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: " مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسَ تَوَاضُعًا لِلهِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الْإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا"[أخرجه الترمذي في سننه، وقال الألباني: حسن] . لم يترك كل اللباس كالمتصوفة والمتدروشة ولم يصبح من الزهاد الذين يشتكون الله، وإنما شيء من اللباس تركه وهو يقدر عليه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها. فالناس على أرض المحشر يحشرون عراة حفاة غرلًا فالله عز وجل ينادي شخصًا بعينه على رؤوس الخلائق فيشرئب الكون وكل من هو موجود يشرئبون لماذا ينادي الله فلان بن فلان بن فلان؟ فيأتي وهو لا يعرف ماذا سيحدث! فيذكره الله عز وجل بهذه الخصلة وبهذا الموقف بأنه ترك شيئًا تواضعًا لله وهو يقدر عليه، فيفرش له ويخيره الله عز وجل من حلل الجنة ومن حلل الإيمان أيها شاء يلبسها، ولذلك لا شيء تفعله في الدنيا ويذهب هباء، لكن المسألة فقط مسألة وقت.

نذكر حديث النبي -عليه الصلاة والسلام- مع العباس بن عبد المطلب: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ إِلَى السِّقَايَةِ فَاسْتَسْقَى، فَقَالَ العَبَّاسُ: يَا فَضْلُ، اذْهَبْ إِلَى أُمِّكَ فَأْتِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَرَابٍ مِنْ عِنْدِهَا، فَقَالَ: «اسْقِنِي»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ أَيْدِيَهُمْ فِيهِ، قَالَ: «اسْقِنِي»، فَشَرِبَ مِنْهُ، ثُمَّ أَتَى زَمْزَمَ وَهُمْ يَسْقُونَ وَيَعْمَلُونَ فِيهَا، فَقَالَ: «اعْمَلُوا فَإِنَّكُمْ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ» ثُمَّ قَالَ: «لَوْلاَ أَنْ تُغْلَبُوا لَنَزَلْتُ، حَتَّى أَضَعَ الحَبْلَ عَلَى هَذِهِ» يَعْنِي: عَاتِقَهُ، وَأَشَارَ إِلَى عَاتِقِهِ. [أخرجه البخاري، صحيح]

كان عندهم سقاية الحجيج فجاءه النبي -عليه الصلاة والسلام- فقال: اسقني يا عباس، أي أعطني من الماء وكان هذا سقاية الحجيج وكل الناس يأخذون منه، فكان من الشرف أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأخذ منها، فالتفت العباس إلى ابنه الفضل -رضي الله عنهما- وقال: يا فضل اذهب لأمك فأتِ بماء، يقصد مياه نظيفة لرسول الله فنظر إليه النبي -عليه الصلاة والسلام- فقال يا عباس اسقني أي مما عندك، قال يا رسول الله إنما هذا للناس يجعلون أيديهم فيه، لأنه حوض سقاية كبير والناس تغرف منه فالكل يضع يده فيه، فالعباس شرّف النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يأخذ من هذا الماء، فقال النبي -عليه الصلاة والسلام- اسقني يا عباس فقال: فشرب منه فما استنكف رسول الله أن يشرب من الماء الذي شرب منه كل الناس ووضعوا أيديهم وهو سيد المتواضعين بل هو الذي دخل عليه عمر ابن الخطاب،-رضي الله عنه- في الحديث الطويل : " فَقَصَصْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْحَدِيثَ، فَلَمَّا بَلَغْتُ حَدِيثَ أُمِّ سَلَمَةَ تَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ ،وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا ، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ فَبَكَيْتُ ، فَقَالَ : مَا يُبْكِيكَ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ ، فَقَالَ : أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ". [أخرجه البخاري، صحيح] ففهم عمر الدرس، ولذلك لما فتحت الشام -وهذه كانت من القصص مع خالد بن الوليد- دخل عمر ابن الخطاب -رضي الله عنهما- فإذا بمائدة كبيرة قد صنعت له مائدة كبيرة من أنواع الطعام، فلما رآها عمر قال: كل هذه لنا؟ فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبعوا؟ فقال خالد بن الوليد -رضي الله عنه- لهم الجنة. عمر -رضي الله عنه- ما أسرته رائحة الطعام ولا شكل الطعام! تخيل أن تدخل وأنت جائع وبعد سفر على مائدة طعام ما الذي من الممكن أن تقوله؟ فتأثر عمر من الكلمة قال: إن كانت لهم الجنة وكان نصيبنا هذا الحطام فوالله إن البون بيننا بونًا شاسعًا! يعني لو ذهب فقراء المسلمين وأصبحوا في الجنة وصار نصيبنا من الخير أن نأكل هذا الطعام في الدنيا والذي سيخرج منا فقد باينونا بونًا شاسعًا.

أسأل الله أن يبارك لنا في رزقنا وفي عمرنا وأن ينفعنا بما علمنا وأن يجعل رزقنا فيما يحب ويرضى، وألا يجعل فيه حرامًا ولا مظلمة لأحد، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تنويه: مادة المحاضرة جُمعت من مصادر عدّة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخل بروح المحاضرة ومعانيها